

أناشيد وطنية مغربية وعربية محورها ثورة الريف

ذ محمد العربي الساري

معروف أن الثورة التحررية التي قادها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي كانت مصدر إلهام للشبان المغاربة الذين كانوا وهم شباب في طور التحضر للتزول إلى الشارع لتصدر النضال السياسي ضد نظام الحماية.

وحيثما شاع في المغرب عبر قرار بن عبد الكريم بتسليم نفسه إلى السلطات العسكرية الفرنسية، عم الشعور بالأسى في كل أنحاء المغرب، بعد أن كانت أخبار الانتصارات التي كان يحرزها الثوار الريفيون تزرع التفاؤل في البوادي والخواضر المغربية في مختلف المناطق.

وسجل التاريخ أن ثلاثة شبان من طلاب جامعة القرويين، التي تلقى فيها الزعيم الريفي قبل سنوات، تكوينه المثني الذي أهله لممارسة القضاء، تأملوا في حادث الاستسلام، وتأثروا له في أعماقهم، وسجلوا مشاعرهم وأفكارهم في مساجلة شعرية، هي في حد ذاتها دليل واضح على التأثير الذي مارسه بن عبد الكريم على أفكار الشبيبة حينذاك.

يتعلق الأمر بأبيات شعرية أنشأها الطالب الشاب المختار السوسي، عقب عليها بأبيات أخرى رفيقه هلال الفاسي الذي لقبه أصدقاؤه بشاعر الشباب. وشاركهم في ذلك رفيقهم العلوي. وتناولت تلك الأبيات المحفوظة في ديوان هلال الفاسي التعبير عن الألم، ولكن في نفس الوقت التعبير عن العزم على حمل المشعل، لمواصلة الكفاح بأسلوب آخر لتحقيق نفس الهدف الذي عمل له الخطابي.

وحدث بعد ذلك في مجال الأشيد الوطنية تناسل نظمي ولحني انتقلت من خلاله أنشودة وضعت في الأصل للتغني بالثورة المجيدة التي قادها الخطابي، إلى نشيد وطني ذائع الصيت ما زالت ألفاظه وإيقاعاته تتردد حتى اليوم.

وقد ترك المرحوم محمد بنونة، القائد البارز في الحركة الوطنية بالشمال، وثيقة صوتية نقل فيها السيد العربي بنونة في مقال منشور في جريدة العلم بتاريخ 7 يونيو 1990 جاء فيه أنه "في ربيع الأول سنة 1343 كانت جيوش المجاهد الكبير السيد محمد بن عبد الكريم الخطابي تهاجم المستعمرين في كل ناحية من نواحي المنطقة الخليفة (المخفضة للاحتلال الإسباني) ووصلت في هجومها إلى أحواز تطوان، فكانت المعارك تدور في أجنتها وأغراسها، وكنا نراها بالنهار، ونسمع صنادها في الليل.

ويمكن أن نذكر أن التاريخ الذي أورده بنونة بالتقويم الهجري مطابق أكتوبر 1924 وهو يصادف فترة قرار برمودي ريفيرا بالجللاء عن الشاون ابتداء من 15 نوفمبر من تلك السنة، وصادف تقدم قوات بن عبد الكريم غربا حيث وصلت مدافعه إلى مشارف جبل غرغيز بعاصمة المنطقة الخليفة. وما ورد في التسجيل الصوتي يضيف إلى معلوماتنا تفاصيل منها أن صاحب التسجيل يقول إنه في ذلك الوقت أنشأ أول نشيد وضعه في حياته، وجاء في شكل زجل ملحون قام هو بتلحينه، وكان مطلعته:

مغربنا وطننا روحنا فداء

أميرنا عبد الكريم ربي حماه

يارتنا هي لنا

طرق الرشاد والاتحاد

هيا بنا بني الوطن إلى الجهاد

مستمسكين بدينتنا نفزو الأعداء.

ولكن ذلك النشيد أصبح غير ذي موضوع، بسبب أن الدعوة الحارة إلى الجهاد لنصرة بن عبد الكريم أصبحت متجاوزة بعد هامين، حينما توقفت الحرب في سنة 1926. ولهذا يذكر أحمد بنونة في التسجيل الصوتي المحفوظ حتى الآن، أنه حينما تقابل مع شاعر الشباب الذي كان معجبا بالنشيد طلب من رفيقه الفاسي أن يصوغ النشيد بعبارات أخرى تكون مناسبة لظروف ما بعد الحرب، وتكون لهجته معتدلة، لتسهيل التخلي به في المناسبات الوطنية. وتضمن النشيد على الخصوص ما يلي:

مغربنا وديتنا يجمعنا

إلى الأمام على الدوام شعارنا

أوطاننا أرواحنا

لها فداء لها فداء.

وقال بنونة عن تلك الصيغة الجديدة إنها كانت بنفس الوزن ونفس اللحن ولكنها مختصرة. وقد نشرها الأستاذ محمد داود في مجلته السلام. ولا شك أنه يقصد النص الذي نشر في العدد الخامس الصادر في شهر فبراير 1934. وجاء النص في الصفحة 37 من العدد المذكور ونشر بعنوان نشيد المؤتمر. ونسب صراحة لعلال الفاسي. وورد في ديوان لعلال الفاسي، الجزء الأول الذي حققه الدكتور عبد العلي الودغيري، أن المؤتمر المقصود هو مؤتمر الطلبة بباريس سنة 1933. ولعله يقصد مؤتمر طلبة شمال إفريقيا المسلمين (ص 35). وكان مطلعها كما يلي:

نحن الآلى، نحن العلاء، نحن البلاد

نعلي منار، هادي الديار، بالاجتهاد.

وقد تضمنت الديوان.

وجاء في التسجيل الصوتي لبثونة أن النشيد المذكور في صيغته الجديدة انتشر بسرعة وأصبح يستعمل في الأفراس وفي الاجتماعات الوطنية.

على أن النشيد الذي كان في الأصل لمحمد بنبنة وكان للتفني بثورة الريف، لم يكن الوحيد. فهناك نشيد آخر ألفه وطني رباطي هو أبو بكر بنباني عم صديقنا الأستاذ عثمان بنباني. وقد لحنه أيضا أحمد بنبنة، كما ذكر عبد العزيز بن عبد الجليل الذي أورد بنبنة في كتابه الحافل، الأناشيد الوطنية ودورها في حركة التحرير (ص 310)، وقد نقله عن عبد الله كنون: أحاديث المغرب في الشرق. وهذا النشيد معروف ومطلعه:

يا بني المغرب ما هذا الرقاد

ما لكم صرغم كأمتان الجماد.

وقيه بعد ذلك:

يا بني المغرب سبروا للأمام

وارفعوا راية خاتمتنا الهمام

فخرنا عبد الكريم بن الكرام

واسألوا الله انتصار المسلمين

وأورد بن عبد الجليل في الكتاب المشار إليه نص نشيد آخر عن ثورة الريف بعنوان "في ثنايا المعجاج" للشاعر الفلسطيني إبراهيم طوقان، وهو مثل النشيد المغربي المعروف "بمناط الأمل" لميد الله كنون مقتبس عنه من النشيد الوطني اللبناني. وجاء في نشيد طوقان:

والنحام السيوف

والثنايا تطوف

في ثنايا المعجاج

بينما الجرداج

بتهادي نسيم فيه أزكى سلام
لاين عبد الكريم الأمير الهمام

ولكن هناك ما يمكن أن يضاف إلى ما ذكر بشأن النشيد المغربي الأول من حرب الريف، وبالدات من التسجيل الصوتي لأمحمد بنونة الذي أشار إلى ما يفيد أنه بعد سنوات من نشر النشيد في صيفته المقتضية، ظل النشيد بوزنه ولحنه يخاطب المغيلة الوطنية، وفي الأربعينيات وضع علال الفاسي نشيدا جديدا على منوال النشيد الأول بقصد جعله نشيدا رسميا لحزب الاستقلال. وقال أمحمد بنونة: "واستدعاني الأمين العام للحزب الأستاذ أحمد بلافرج إلى الرباط قصد تلقين اللحن لنشيد الحزب" وأصبح كما يلي:

مغربنا وطننا وروحي فداه

ومن يدس حقوله يلق رده

دمي له، روحي له

وما ملكك فداه

(ولكن الشائع هو وما ملكك في كل أن)

وأشار الودغيري حين نشر "نشيد الحزب" (ص 115 من ديوان علال الفاسي) أن نسبة النشيد لصاحب الديوان معروفة لدى كل من يحفظه.

وكان مقال العربي بنونة المستد للوثيقة الصوتية التي تتضمن معطيات فاصلة، هو خاتمة سلسلة مقالات نشرتها العلم لكل من عبد الرحمان الحريشي (العلم 5/9/1990) ورشيد بناني (العلم 18/5/1990) وذلك تمقيا على مقال تسامل فيه علي مراكش عن قصة نشيد مغربنا ووطننا. كما تدخل في الموضوع عبد الهادي التازي (العلم 17/1/2009) الذي ذكر أنه سمع نشيد "مغربنا ووطننا" في أكتوبر سنة 1937. وقال التازي إن ذلك الوقت هو تاريخ ميلاد النشيد المذكور الذي أضاف أنه كان نشيد الحزب

الوطني الذي انشق منه حزب الاستقلال فيما بعد في 1944، والجدير بالذكر أن الجزء الذي حققه الدكتور عبد الحلي الودغيري من ديوان هلال الفاسي لا يذكر التاريخ الذي وقعت فيه صياغة نشيد حزب الاستقلال.

وقد قام رشيد بناني في المقال المشار إليه آنفا بتحليل لمختلف الصيغ المعروفة، وقارن بعضها ببعض، ولاحظ أن هناك اختلافا في القوافي، ولاحظ وقوع كسر عروضي في إحدى تلك الصيغ، في الشطر الذي يتضمن الإشارة إلى الحزب الوطني.

وعلى أي حال فإن التسلسل الزمني لمختلف الصيغ، يجعل من الممكن القول إن "مغربنا وطننا" الذي آل في نهاية الأمر إلى ما هو عليه اليوم، يمت في أصله إلى نسب هريق هو النشيد الذي أنشئ للتغني بالثورة الريفية المجيدة. وهذه القراءة المباشرة تدل فيما تدل على أن جيل الثلاثينات الذي أهبط الحركة الوطنية المغربية المعاصرة قد استلهم مشاعره ومرجعته من الكفاح البطولي الذي قادته الأمير الخطابي.

ولابد أن نضيف على سبيل الختام أنه كما أن هذا النشيد الذائع الصيت متحدر من نشيد وضع للتغني بالثورة الريفية، فإن ثلاثة أناشيد اشترك فيها ناظمون من المنطقة السلطانية وملحنون من المنطقة الخليفية. وهذا مما فوت على الاستعمار أن يحقق أحد أهم أهدافه، وهو تكريس تجزئة المغرب، التي ظلت بفضل رواد الحركة الوطنية مجرد حبر على ورق. وقليلة هي النوازل التي تصدق عليها هذه العبارة، بكل دقة.

7 مايو 2011

المساري، محمد العربي. 2012. أناشيد وطنية
مغربية و عربية محورها ثورة الريف. *البحث
التاريخي*، مج. 2012، ع. 9، ص ص. 43-48.